الفصل السادس عشر

وأصبحتُ ذات يوم فإذا شيء غريب يضطرب في جو الدار أحسه ولا أتبينه، وأشعر به ولا أحققه، ألمحه في وجه المأمور وفي وجه ربة البيت حين ينظران إلى خديجة ثم يسترقان نظرات فيها أمل مبتهج وحزن مكتئب، وحين يخلوان للحديث بعد الغداء أو بعد العشاء فتطول بينهما الخلوة أكثر مما تعودت أن تطول. وألمحه في هذا الابتسام الذي يهديه المأمور سخيًّا كريمًا إلى أهل الدار جميعًا، متحدثًا إلى من لم يكن يتحدث إليه، ومتلطفًا لمن لم يكن يحفل بوجوده، وفي نظرات طويلة يلقيها عليَّ أنا حين يلقاني، وفيما تُظهر ربة البيت من تَبسُّط مع الخدم وعطف عليهم والميل إلى أن تأخذ معهم بأطراف الحديث.

ألمحه في هذا كله، ولكني أجد فيه غموضًا يثير مَيْلِي إلى الاستطلاع، ويكاد يُسليني بعض الشيء عن المهندس الشاب، وعما يقع في داره من خيانة وإثم، وعما يثير في نفسي من غضب وغيرة، وأهُمُّ أن أسأل خديجة عن هذا الذي ألمحه ولا أستبينه، ولكنِّي أجدها غافلة لا تلمح شيئًا ولا تحس شيئًا فأعرض عما هممت به وأكتفي بالملاحظة والانتظار، على أن الانتظار لم يطل، فما تنقضي أيام قليلة حتى تظهر حركة في دار المهندس الشاب تستتبع حركة في دارنا، ثم تتلاحق الحوادث مسرعة، وإذا هي تملكني وتغمرني وتستأثر بي وتنسيني كل شيء وتذكرني بكل شيء في وقت واحد، وتخرجني من هذا السكون اليائس الذي لزمته إلى نشاطٍ يائس دُفعت إليه دفعًا.

هذا بيت المهندس الشاب قد ظهرت فيه الحركة وكثر فيه الاضطراب فأثاثه يُنقل من مكان إلى مكان ويناله الإصلاح والتنظيف والترتيب، ويؤتى إليه بأثاث لم يكن فيه، بعضه مشترى تظهر عليه الجدة، وبعضه مستعار يظهر عليه القدم، كأنما تتهيأ الدار لاستقبال بعض الزائرين، فهي تعدُّ لهم ما يحتاجون إليه من الغرفات والحجرات ومن الأدوات والأثاث.